

اضواء - عبد العزيز المقالح يرسم سبعاً وسبعين لوحة شعرية في كتاب (الأصدقاء) - شاعر ينقب في ذاكرة الوجوه -

عبد الرزاق الربيعي

للمصداقة في حياة الشاعر عبد العزيز المقالح معني كبير في حياته، ويشكل هذا المعني ثقلا روحيا وفكريا واجتماعيا يجعل المقالح محاطا بمحبة الأصدقاء الذي يحيطهم بمثلها لذلك يري زائر صنعاء مجلسه الأدبي يمتلئ بالأصدقاء، شعراء واكاديمين ونقاد وفنانين، ومتقنين من مختلف الشرائح، وكذلك مكتبه في جامعة صنعاء - أيام كان رئيسا لها - ومركز الدراسات والبحوث اليمني، وبيته، لدرجة أنني كنت كثيرا ما اتساءل: متي يسرق المقالح نفسه من الأصدقاء ليكتب الشعر وأعمدته الصحفية، ودراساته وبحوثه الأكاديمية؟ وغالبا ما يكون سعيدا بوجودهم، يوزع ابتساماته الشفيفة بينهم بالتساوي، ينهض لمعانقتهم، والترحيب بهم برشاقة، وفرح طفولي، بوجه بشوش وروح مليئة بالمحبة، هذه اللهفة للأصدقاء كان لابد لها أن تجد انعكاسا علي كتاباته الشعرية وهذا ما وجدناه في جميع دواوينه التي بدأها بديوان مشترك مع صديقه الشاعر عبده عثمان، في إجراء له دلالاته، ويكاد لا يخلو ديوان من دواوينه من نص يخص به صديقا، أو يهديه إليه، وفي واحد من أهم دواوينه الشعرية (أبجدية الروح) يقول بمرارة:

(الصديق الذي كان لي مات

خلف عنوانه ومضي راکضا

يتسكع تحت القبور الأليفة

بحثا عن الأصدقاء الحميمين

ياصدقائي الكثيرين، ياايها الطيبون:

اتركوني وحيدا

أفتش بين القبور الأليفة

عن صور لبقايا الأحبة والأصدقاء)

هكذا كان يري العالم مقفرا كلما سرق الموت منه صديقا أو غادره لسفر أو... فيقيم حدادا شعريا منسحبا إلي الداخل. إن تجربته الواسعة في الأدب و الحياة، ومواقفه الإنسانية، ودفاه الروحي، وحميميته: صفات جعلته يرتبط بعلاقات واسعة جدا لاحصر لها و في حوار أجريته في صنعاء مع الصديق الكبير المقالح سألته عن اثر الصداقة في حياته فأجاب (الزمالات والصداقات الكبيرة تتجاوز التأثير الآني وأهميتها تظهر بمرور الأيام وهي تزداد رهافة وشفافية كلما تقدم بنا العمر، وحتى تلك الصداقات والزمالات التي غادرت عامنا بالموت أو الهجرة إلي الأماكن البعيدة تظل حاضرة في الوجدان متجذرة في الروح وبكل الإيمان والصدق لاستطيع أن أتصور عامنا أو عالمي الخاص خاليا من صلاح عبدا لصبور وأمل دنقل وزكي بركات وعبد اللطيف الربيع، ومن الصعب بل من المستحيل تحديد الملامح والظلال التي تركها الأحياء والأموات من الأصدقاء في الروح أو التجربة).

إذن الصداقة ملمح جمالي مهم في تجربة المقالح، وقد توجهها بديوانه الجديد الذي حمل اسم (كتاب الأصدقاء) الذي صدر مؤخرا عن دار رياض الريس في بيروت ليكون سفرا (في الحب والصداقة)

يتألف هذا السفر الشعري من سبع وسبعين لوحة شعرية عن سبعة وسبعين صديقا ونماذج من إبداعاتهم الشعرية والنثرية لأصدقاء ارتبط بعلاقات معهم عبر الزمان أحيانا والمكان أحيانا أخرى، وقد دون في كل لوحة انطباعه عن ذلك (الصديق) علي امتداد صفحتين ويورد في الصفحتين التاليتين للوحته مقطعا من إبداع ذلك الصديق، ففي لوحة ادونيس يقول:

شاعر يجمع الأرض والشمس

بين أصابعه

يجمع البحر والنهر في مورك

من فضاء قصانده

إلي قوله:

مهيار

ها أنت في صيغة الجمع

أم أنت جمع علي صيغة المفرد المتفرد؟

حيرتني - أتذكر -

انك حيرت كل الذين أحبوك
كل الذين علي قلق خاصموك
كأنك نهر يخبيء أسرار ه خلف موج الكلام
يسير ببطيء ليشرب من مانه العذب كل الأنام
ويختار لادونيس من ديوان (مهيار) مقطعا يضعه بين قوسين:
(امض ابتعد واحتضن الأمواج والهواء
واحمل علي أهدابك السحاب والبروق
ولتتكسر وراءك

مرآتنا، ولتتكسر قارورة السنين....

إلي آخر المقطع، وهكذا بالنسبة لبقية الأصدقاء: المعري، النفري، احمد شوقي، سليمان العيسي، السياب، البياتي،
الملائكة، البردوني، درويش، حاتم الصكر، كمال أبو ديب، سميح القاسم، إسماعيل الوريث، زيد مطيع دماج، عدنان
الصائغ، شوقي بزيع، علي الشلاه، قاسم حداد، الفيتوري، عباس بيضون، علوي الهاشمي، حميد سعيد، شوقي
عبدالامير، محمد الغزي، احمد العواضي... الخ.

ومن خلال لوحاته الشعرية يدون لواعجه و يبت أسئلته الوجودية، فعندما يخاطب ص لاح عبد الصبور الذي يصفه
بأنه (ملاك يطير بأجنحة الشعر) يتساءل:

(يا صديقي:

لماذا تعجلت موتك

واخترت أن تشرب الكأس

منفردا؟

أنت من كان يؤثر أصحابه

ويقاسمهم - في المودة -

ورد الحياة)

وفي لوحة (عدنان الصائغ) يقول التي يرسمها من خلال تأمله في تجربة الصائغ الذي:

(يتأبط منفاه

في حجل

وانكسار

ويأوي إلي نفسه كلما أغمضت

أعين الأصدقاء

يسألها - نفسه -

عن بلاد وراء الغبار

أحب فناجين قهوتها

مشية الفتيات الجميلات

أرغفة النهر عند الظهيرة

ماء الطباشير

صوت المدرس

وحده الآن

عارٍ سوي من هموم تضيق بها الأرض

تركع تحت تشظي مرارتها

الصخرة القاسية!)

ويورد مقطعا من ديوانه (تأبط منفي) تأكيدا للمعنى الذي رسمه في لوحته الشعرية

وبذلك يمكننا أن نعتبر (كتاب الأصدقاء) ليس كتابا واحدا بل كتابين، الأول: ضم هواجس المقالغ ولواعجه

واشراقته، وأشواقه التي يبثها من خلال صور يرسمها للأصدقاء الذين كثيرا ما ألف صحبتهم، والثاني: كتاب

مختارات لأصدقائه الشعراء والكتاب الذين طالما تغني بإبداعاتهم ليعطينا سرا من أسرار صداقته لهم، حيث هموم الكتابة هي القاسم المشترك بين المقالح وأصدقائه، فاتحا نصه الشعري علي الأجناس الأدبية الأخرى مواصلا مابدها في - كتاب صنعاء - و - كتاب القرية - من خلال الاشتغال علي ثنائيات: الشعري والنثري، اليومي والفلسفي، الماضي والحاضر، الواقعي والخيالي، الذاتي والموضوعي، اللغوي والفكري، موسعا من أفق القصيدة لتكون لوحة علي جدار تجربة، والديوان الشعري ليكون كتابا جامعاً.

فذابت القصيدة لتحل محلها اللوحة، واختفي العنوان لتكون الأرقام بديلا في - كتاب القرية - وأسماء الأشخاص - في كتاب الأصدقاء - والاشتغال علي بؤرة مركزية واحدة تكون مثل المجرة التي تدور حول فلکها الكواكب، ففي كتاب صنعاء كانت صنعاء بؤرة مركزية بتاريخها وشوارعها وعمارتها وجبالها ووديانها، وفي - كتاب القرية - كانت القرية والطفولة بؤرة شعرية حرّضت مخيلة الشاعر وحفرياتة، وفي - كتاب الأصدقاء - كانت الصداقة التي قرنها بالحب - حسب اوكتافيو باث - باعتبارهما عاطفتين متقابلتين.. وكلاهما عبارة عن علاقة شخصية حميمية وجدانية، ومن هنا فكتاب الأصدقاء مدونة شعرية تزخر بالوجدان، وتحثني بالجمال الروحي والفني، والأشخاص وصداقة الحرف.